صورة المجتمع الصحراوي الجزائري في عيون المستشرقين الفرنسيين: مجتمع الأغواط أنموذجا

فاطمة دجاج

جامعة عمار ثليجي بالأغواط(الجزائر)

fatimadjadj90@gmail.com

الملخص:

عمل الاستعمار الفرنسي على السيطرة على المجتمع الجزائري ولتحقيق هذه الغاية كان لابد من فهم هذا المجتمع وسبر أغواره ولم يكن ليتأتى لهم ذلك الا بتجنيد المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين وتشجيعهم على التغلغل في أعماق المجتمع والتعرف عليه عن كثب ثم دراسة كل ما يخصه فاهتموا بالفرد والجماعة والعادات والتقاليد والثقافة وكل مكوناته وقد توزع هؤلاء المستشرقون من عسكريين وفنانين ورجال دين وعلماء ورحالين في كل أنحاء الجزائر بما فيها منطقة الأغواط التي شهدت خلال القرن 19م توافد هؤلاء عليها فكتبوا بالتفصيل عن كل ما يتعلق بهذا المجتمع لفهم عقليته ليسهل التحكم فيه ومن المواضيع التي كانت محل اهتمام هؤلاء اهتمامهم بالمرأة في المجتمع من حيث وضعيتها ومكانتها ودورها في المجتمع كما أولو عناية خاصة بلباسها وحليها بكثير من التفصيل لأشكالها وكيفية استعمالها ومن المواضيع التي أثارت انتباههم نجد اهتمامهم بدراسة الطقوس ومعتقدات المجتمع حول الأولياء والصالحين إضافة الى اهتمامهم بالضيافة العربية التي فصلوا في أهميتها وآدابها وطعامها ولم يغفلوا خلال دراستهم لهذا المجتمع موضوع الفنون الشعبية كالشعر والرقص والموسيقى من خلال هذه الدراسة نعمل على توضيح نظرة بعض المستشرقين الفرنسيين لمجتمع الأغواط بالتفصيل في المواضيع السابقة الذكر.

مقدمة:

لم يترك الاستعمار الفرنسي من وسيلة الا وظفها في سبيل تحقيق أهدافه في الجزائر والتي من أبرزها اخضاع المجتمع الجزائري والسيطرة عليه وخلال القرن 19م بدأ الاهتمام الفرنسي بالصحراء الجزائرية من أجل التوسع فيها بعد أن استتب لهم الأمر في الشمال ولأن الصحراء كانت مجهولة لديهم فانهم جندوا المستشرقين الفرنسيين والأوروبيين باختلاف اهتماماتهم لدراستها ودراسة مجتمعها ومن المجتمعات التي حظيت باهتمام هؤلاء نجد مجتمع الأغواط ودونوا ملاحظاتهم في مذكراتهم وتقاريرهم الموجهة الى السلطات الفرنسية ولم يتركوا فيها شاردة ولا واردة الا كتبوا عنها بالتفصيل وتركز هذه الدراسة على الصورة التي رسمها هؤلاء المستشرقون لمجتمع الأغواط ولأنه لا يتسنى لنا هنا عرض كل ما جاءت به دراساتهم حول المجتمع المدروس فإننا نكتفي بتقديم نماذج عن ذلك نبرز من خلالها نظرة الآخر

لهذا المجتمع. فما هي الانطباعات التي سجلها المستشرقون الفرنسيون حول مجتمع الأغواط خلال القرن 19م؟ والى أي مدى استطاعت كتاباتهم تصوير هذا المجتمع خلال القرن19م؟

أولا: نظرة المستشرقين الفرنسيين للمرأة بمجتمع الأغواط

اهتم المستشرقون الفرنسيون في مؤلفاتهم خلال الفترة الاستعمارية بالمرأة، ومكانتها ودورها في المجتمع الأغواطي، ورسموا لها صورة قاتمة، وذلك اما نتيجة الجهل بتقاليد هذا المجتمع، والتعاليم الاسلامية، أو نتيجة للتحيز لأفكارهم المسبقة عن المجتمع الجزائري عموما، فمنهم من اعتبرها كائنا مسلوب الارادة والحقوق، ومنهم من رأى أن الجزائر لها كل شيء عدا المرأة.[1]

ومن هؤلاء نذكر بنجامين غاستيون ودوماس وفرومنتان Fromentinوالدكتور برناردBernard وجون بوميرول Jean Pommero وترومليTrumelet وغيرهم الكثير ممن زاروا المنطقة. ولأنه لا يمكننا تتبع مواقف كل هؤلاء من المرأة فإننا نكتفي بذكر أمثلة عن ذلك فقط فهذا دوماس مثلا يرى أن المرأة لا مكان لها، إنها تعتبر عبأ مثل الدواب، تظل في الخيمة الزوجية كما لو كانت في السجن، وهي ضحية العادات والأحكام المسبقة. [2]وأضاف في مكان آخر انها مسألة مخلوق محصور في الجزء الأكثر سرية من الخيمة أو المنزل، وحتى في الخارج تختبئ تحت الحجاب، الذي يلفها لمنع النظرات الفضولية.[3]

ومنهم من تظاهر بالشفقة على حالها، والاستياء من الوضع الذي تعيشه، وهذا موقف "فرومنتان" Fromentin عن دور المرأة في منازل الأغواط، حيث يرى أن المرأة تعيش وضعية صعبة، بسبب الظروف التي يمنحها لها الزواج، فهي في الوقت نفسه الأم والحاضنة، والعاملة والحرفية، والخادمة وسائسة الخيل، وتقريبا بهيمة المنزل.[4] وما لفت نظر الدكتور"برنارد" Bernard خلال زيارته للأغواط هو دونية المرأة، لأنها تبقى دائما في مكانها، ولا تطلب أن تكون جزءا من الجماعة، أي لا تنتخب بل إنها ببساطة مؤهلة لدورها النبيل داخل الأسرة.[5] وما يثبت دونية المرأة عندهم أنها لا تتناول الطعام مع زوجها ولا مع ضيوفه، كما أنها ليست حرة في أفعالها، فوصاية والدها يمررها إلى الزوج، وفي حالة الطلاق تعود الوصاية إلى والدها أو أخيها.[6]

حقيقة ان تلك المواقف بنيت على جهل هؤلاء المستشرقين بعادات المجتمع وبتعاليم الإسلام وهي محاولة منهم لضرب القيم التي يقوم عليها المجتمع الصحراوي بما فيه مجتمع الأغواط باعتباره مجتمعا محافظا، لهذا فهو شديد الحرص للحفاظ على شرف وصفاء العائلة، وفي مقدمة ذلك الحفاظ على الاستقامة الجسدية للمرأة، و يتخذ المجتمع لتحقيق ذلك عدة اجراءات، منها احتجاب المرأة من كل أجنبي عن العائلة، وتحديد وتضييق دائرة الحركة والاحتكاك، وعدم المرور أمام الرجال، وعدم التبرج وابداء الزينة أمامهم.[7]وما هو مفروض على المرأة ينطبق على الرجل، الذي يتقيد هو

الآخر ببعض الاحتياطات أمام المرأة، بابتعاده عنها قدر الامكان، وتقليل اتصاله بها، وغض بصره وخفض رأسه إن التقى بأجنبية عنه.[8] وكان الرجال يرفضون أن يرى أجنبي نسائهم حتى ولو كان طبيبا، وفي حالة ولادة المرأة تحضر كبيرات السن هذا الحدث.[9]

كما يعتبر الثناء على جمال زوجة رجل آخر أمرا معيبا، يعاقب عليه المجتمع ويرفضه ويشجب فاعله ونفس الشيء ينطبق على المرأة، اذ تقتضي التقاليد ألا تتحدث المرأة لزوجها عن النساء الأخريات، ولا تصفهن له وهذا احتراما لحرمتهن وحفاظا على شرفهن.[10] وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على حرمة المرأة ولو كانت أجنبية عنهم، والحفاظ على الحشمة والحياء وهذا ما تدعو اليه التعاليم الاسلامية.

هذا الحرص الشديد على شرف المرأة وحمايته قدر المستطاع، قد لفت انتباه بعض العسكريين الفرنسيين الذين مروا بالمنطقة، وهذا ما لاحظه "كلافوناد" Clavenad عندما استقبلهم قايد أولاد يعقوب، الذي كان مخيما بالقرب من للماية، حيث ذكر أن النساء في المخيم كن محجوبات عن كل العيون، وأن القايد كان يبدو صارما فيما يتعلق بشرف عائلته، وللحفاظ على شرفه هو مستعد للموت من أجل ذلك.[11] و نفس الشيء لاحظه "ترومليTrumelet" في تاجموت قائلا:" سأل أحد الجنود الفرنسيين تاجموتيا(نسبة الى تاجموت) عن نسائه، فأجابه ما فهمت شيئا، و قد كنا نتوقع ذلك، وبالفعل فإن الأدب الاسلامي لا يقبل أن نطلب من العربي أخبار عن نسائهم بكيفية أخرى غير الجماعية كيف أحوال دارك ".[12]

كما تحدث الضابط Auguste choisy عن ذلك، حيث اقترب من خيام عائلة أغواطية كانت تخيم في المنطقة المعروفة ببلاد العطش زباشة، حيث ذكر بأن المرأة البدوية غير متحجبة، ولكن من خلال مشيتها تفرض الاحترام والوقار، فهي تحافظ بذلك على كرامتها.[13] بل ذهب بهم الحرص على حماية شرف المرأة، الى أن بعض الأزواج يقضون وقتهم في مراقبة زوجاتهم، ولا يتركونهن يغبن عن أعينهم، يرافقونهن الى الغابة للاحتطاب، والى منابع المياه للسقي، والى كل مكان تقريبا.[14] ونظرا لطبيعة المجتمع المحافظة فان كل عائلة تحدد مجال خيمها، وتدافع عن حدودها، لتمنع مرور أي شخص ليس جزءا منها.[15]

بل حتى المنازل في القصور صممت وفقا للتعاليم الاسلامية، والمعايير الاجتماعية القائمة على احترام الح شمة والحياء داخل المنازل، وهذا ما لاحظه "ترومليTrumelet" عندما تحدث عن منازل قصر للماية قائلا:" الدار العربية كلها غيرة وحذر، دخول الفناء عوض أن يكون من محور الباب، فإنه موضوع على الجانب ومسبوق بسقيفة، إن هذا الاجراء يمنع النظرات الفضولية أن تفتش في هذه الأكواخ".[16] كما كانت المنازل تتكون من فناء مربع بمسكن في كل وجه مشكل من

غرفة أو غرفتين على الأكثر مع توجيه الغرف نحو الفناء الداخلي ،وذلك يرجع الى كونه جزءا من الفضاء الخارجي ،وهذا يؤدي إلى التقليل من الفتحات الخارجية نحو الشوارع، كما أن طبيعة التصميم تساعد على توفير مناخ مناسب لسكان المنزل، إضافة إلى توفير حيز وظيفي ملائم للنشاطات المنزلية خاصة النسوية منها، مع الحفاظ على أسرار البيت، وتحقيق ستر سكانه خاصة من النساء.[17]

و نظرا لطبيعة المجتمع المحافظة، فان المرأة القصورية لا تخرج الا نادرا، ومن الأماكن التي يسمح لها بالذهاب اليها، هي الحدائق للتنزه و الترفيه عن أنفسها رفقة نساء أخريات، أو لجلب بعض سلال الفاكهة، و هذا بالنسبة للنساء العوام، أما زوجات السادة و الوجهاء، فلا يجوز لها القيام بأي فعل يقربها من العمل الخارجي للرجل، و هذا يجعلها لا تغادر المنزل الا في بعض المناسبات الخاصة، و عموما فان المرأة عادة لا تترك المنزل الا للضرورة، كالخروج لتهنئة قريب رزق بمولود جديد، أو زيارة خيمة أو منزل والديها أو أقاربها، أو زيارة أضرحة الأولياءأو قبور أقاربها المتوفون، و ترافقها عادة امرأة مسنة أو رجل، و ترتدي الحجاب خلال خروجها، و عادة ما تهمس خلال الكلام و لا ترفع صوتها احتراما لزوجها، هناك تحفظ كبير عن الخروج للخارج، والحجاب والتستر والمرافقة، وهذه الأمور تتشبث بها المرأة بنفسها.[18]

ثانيا: نظرة المستشرقين الفرنسيين للباس المرأة وحليها:

يعتبر اللباس وما يتبعه من زينة وحلي، عناصر هامة تعرف بالمجتمع، وذلك أن اللباس لا تكمن قيمته فيما يوفره من حماية للإنسان، من الحر والبرد فقط، بل له قيمة اجتماعية وثقافية، لأنه يضفي على صاحبه لونا حضاريا مميزا، وهذا ينطبق على اللباس بمنطقة الأغواط، وما يميز اللباس فيها بشكل لفت انتباه من زاروها من الأوروبيين، هو كونه فضفاض، بالنسبة للجميع الرجال والنساء سواء الكبار أو الصغار، بغض النظر عن مكانتهم الاجتماعية، نتيجة لتأثرهم بالعوامل المناخية وتمسكهم بتعاليم الدين الإسلامي، وهذا ما يوضحه قول "فرومنتان" Fromentin التالي:" ان العرب ما يزالون يحفظون عادات الشعوب الأولى، ويستطيعون كذلك وأفضل من أي شعب آخر، أن يحفظوا التشابه مع الشعوب القديمة، ليس فقط في آدابهم بل كذلك في زيهم، هذا الزي الذي يمتلك امتيازا مضاعفا، إنه أكثر جمالا من الزي اليوناني وهو أكثر محلية، وظل الشعب العربي بسيطا في كل شيء، وهو جميل لأنه دون أن يتعرى ويتجرد، حقق التجرد تقريبا كاملا" [19]. كما أن "مالستان" رأى أن لباس سكان الأغواط يحقق لهم الحفاظ على تسترهم، بعكس الثياب الأوروبية التي لا تحقق ذلك، وعبر عن هذا بقوله:"...لا تبدو هذه الثياب الفضفاضة كريهة، عكس ما هو عليه الأمر في الثياب الأوروبية الضيقة، ذلك أن العربي أو العربية يبدو دائما ذا منظر مقبول، بحيث لا يرى المرء أبدا مرفقه عاريا على خلاف ما يراه في الثياب الأوروبية التعيسة"[20].

وبالنسبة لملابس النساء بمنطقة الأغواط فإنها تتميز بكونها بسيطة للغاية، تتكون عموما من قطعة من القماش، تلف بها النساء أجسامهن، بحيث تشد عند الخصر بحزام، وفي أعلى الكتفين بأبازيم، وتكون مفتوحة من جانب، وعند أصغر حركة تظهر سيقانهن العارية، وبعض أجزاء الجسم التي يتم اخفاءها بإحكام، نتيجة للحياء الطبيعي. عندما يسرن في الشوارع يلبسن الحايك، وبالنسبة للنساء البدويات خلال الهجرات تضع حجابا، مكون من قطعة واحدة توضع على الرأس، وتنزل على اليمين واليسار لتشكل وشاحا، يغطين رؤوسهن من خلال لف شعورهن بقطعة من القماش، التي تلف في شكل عمامة، لا يجب أن يرتدين المجوهرات ولا يضعن أي زينة قبل أن يتزوجن.[21] وقد وصف "بان" Pein هذا الزي الذي لم يخف اعجابه به قائلا:" يتكون زي المرأة من القميص و الحايك، والمحزمة وغطاء رأس من الحرير المطرز ومنديل ترتديه، و يثبت الحايك في مكانه بواسطة دبابيس طويلة من الخشب أو الفضة أو الذهب (البزيما) يتم ارتداءه ببراعة، ويغطي الصدر ويسقط الى أسفل الرجلين، و يشكل طيات أنيقة". [22] كما وصفت "جون بوميرول" Jean Pommerol الزي الذي ترتديه النساء في قصر الحيرانبقولها:"رأيت الأقمشة الصوفية التي ترتديها النساء، الملحفة التي تحيط بالجسد، والتي تثبت عند الكتفين بدبابيس فضية طويلة، الوقاية البيضاء التي تلف تسريحة شعورهن، وتشد عند أعلى الصدر في الوسط بإبزيم مرخم، محرمة من الحرير حمراء أو بيضاء أو خضراء ملفوفة فوق ضفائرهن، رأيت الأساور على أذرعهن وخلاخل على كواحله ن".[23] وذكرت أيضا أن النساء يرتدين ملابس بألوان زاهية مزينة مرصعة أو مخططة.[24]

كما تحدث "أوغيست شوازي" Auguste Choisy عن لباس المرأة عندما اقترب من خيام عائلة أغواطية، كانت تخيم في المنطقة المعروفة ببلاد العطش (زباشة)، ذكر بأن المرأة البدوية غير متحجبة، وتكتفي بلبس الملحفة والعمامة والحولي، ولكن من خلال مشيتها تفرض الاحترام والوقار والهيبة، فهي تحافظ بذلك على كرامتها.[25] في الوقت الذي أبدى "مالستان" اعجابه بالثياب الفضفاضة التي ترتديها نساء الأغواط، فانه اعتبرها أقل جمالا وزركشة، من تلك التي ترتديها نساء أولاد نايل المقيمات في الأغواط، أو تلك التي ترتديها نساء بسكرة بقوله:" بأنها ليست ألبسة أنيقة مزركشة مثل نساء بسكرة، ولم تكن المرأة في الأغواط تحمل الكثير من المجوهرات مثل بنات أولاد نايل، بل كن ملفوفات في ملابس رمادية أو بيضاء، لم يكن يرى من تحتها غير عيونهن". [26] في حين أعجب Hubertine Auctert بملابس المرأة ووصفها قائلا:" النساء في الأغواط لديهن أثواب مفصلة بدقة فخمة، سواء المصنوعة من الكتان أو النسيج، كل منها يحمل أناقة حسب الأزياء القديمة، وكان سكان الأغواط يهتمون كثيرا بالنظافة، وحريصين على أن يبدون بمظهر لائق".[27] وحسب الدكتور "برنارد" Bernard فان كل امرأة في الأغواط تلبس ثوبا عريضا، مفتوحا على قميص خفيف، وتترك وراءها رداء أبيض طويل

ينزل الى أسفل الظهر، حيث تثبته على رأسها بعمامة سوداء من الحرير [28]، وحتى الفتيات الصغيرات يلبسن مثل أمهاتهن مع بعض الاختلافات الطفيفة، وتتميز فساتينهن بتعدد ألوانها، ترتدين أثوابا باللون الأحمر أو الأصفر أو الأزرق أو الأسود. ولكن بشكل أقل جودة، وهو نادراً ما يخيفهن بالكامل. وبدلاً من العمائم لديهن مناديل في كثير من الأحيان، من أجل تصفيفة الشعر فقط .[29]كما تلبس نساء الأغواط خفا، جزؤه السفلي من الجلد المشدود، مخاط بالحرير الملون بالأحمر المغربي، تشبه الحذاء نصف آسيوية ونصف يونانية.[30]

وقدمت "بوميرول" Jean Pommerol وصفا لملابس العروس التي ترتديها يوم زفافها، والتي تتكون عادة من شال أبيض شفاف، واضافة الى الملابس المعتادة والملحفة الحريرية الفاخرة التي تلبسها، تحيط أكتافها بسبع عشر شالا مكدسة بالتناوب، واحدة من الحرير، والأخرى من الأنسجة السميكة، توضع بشكل احتفالي ويتم تثبيتها بالدبابيس.[31]

وبالنسبة للحلي فان النساء من جميع الأعمار يملكن المجوهرات، ولها عدة وظائف فالنساء يملكن الحلي ويحتفظن بها للأوقات الصعبة، كأن يكون أزواجهن في حالة دين، أو عندما يحتاج لشراء شيء ما، علاوة على ذلك يستعملنها للزينة والتباهي، وللحماية والوقاية من العين والحسد.[32]

ومهما كان المستوى الاجتماعي للمرأة تتزين بقطعة واحدة من المجوهرات في كل يوم، لكن في المناسبات والحفلات ترتدي مجموعة كاملة من المجوهرات، تغطيها من الرأس الى أخمص القدمين تختلف وفقا لمستواها الاجتماعي والاقتصادي، وكذلك وفقا للأعراف والعادات في المنطقة، والتي يجب أن تتناسب أيضا مع الزي الذي يتم ارتداءه.[33]

عموما تحب المرأة الأغواطية اذا كانت ميسورة الحال ارتداء المجوهرات، كالأقراط و الحلقات في الأذن من اثنين أو ثلاثة، في طرفيهما زخرفة من المعدن أو الأحجار الكريمة، و التيجان على الجبهة و الخلاخل الثقيلة في الكاحلين، و تضع في اليدين الى المرفقين الأساور، و تضع سوار في أعلى الذراع فوق المرفق من الذهب، و المقياس و هو سوار من قرن الجاموس مزخرف أو بدون زخرفة، والقلائد من جميع الأشكال و الأحجام من الذهب أو الفضة أو النحاس، وقلائد من القرنفل والعنبر وأحجار المرجان حول الرقبة، و صفائح و لوحات بشكل الورد تدعى الشبكة أو المدور، وهي جواهر كبيرة دائرية من الذهب تعلق على الصدر، كما تعلق التمائم في الرقبة أو تربطها في الذراعين، و المحازم من الصفائح المعدنية، كما ترتدي الثريات عدة سلاسل بالإضافة الى القلادة التي تنزل الى الصدر أو البطن، مع قلائد من العملات الذهبية، و لتثبيت الملحفة تضع الدبابيس و هي البزيمة والخلالةالكل اما بالذهب أو الفضة أو النحاس حسب قدرات رب الأسرة.[34]

بالنسبة المرأة البدوية ونظرا لطبيعة نشاطها ترتدي لباسا بسيطا، وعلى صدرها دبوس واحد من الفضة لمسك الملحفة، والخلخال في الرجلين، ولا تضع أساور ولا مجوهرات الا في المناسبات الخاصة. وقد وصفت "بومرول"Jean Pommerol زوجة شاب بدوي من قبيلة الحرازلية ، وذكرت أنها تلبس لباسا بسيطا، ولا تضع سوى أساور جلدية فقط ، ولا وجود للمجوهرات، وعلى صدرها دبوس واحد من الفضة، وردت ذلك الى الفقر الشديد الذي يعيش فيه زوجها.[35]

وتحتاج المرأة الى الحلي خاصة بمناسبة زواجها، فالحلي تعتبر جزء من الهدايا التي يقدمها الزوج لزوجته، فبمناسبة حفل الحناء تأخذ أم الزوج الى الزوجة قطع من الحلي من الذهب أو الفضة[36]، وتعتبر المجوهرات جزء هام من جهاز العروس، فبعد دفع المهر للزوجة تذهب الأم إلى صائغ الذهب و الذي يتنقل بين الدواوير إذا كان بدويا، لاقتناء الحلي المتمثلة في الأساور والعقود والخلاخل والأبازيم...[37] ، وفي يوم الزفاف تتزين العروس بالحلي من الرأس الى القدمين، تلف جسمها في(الملحفة) وتمسكها بمشابك أو دبابيس مزينة بالسلاسل من الفضة على جانبي الكتف و أعلى الصدر، وتشد وسطها بحزام حريري أحمر لإبراز شكل جسدها أو تشد وسطها بحزام من الذهب أو الفضة، و تضع حلقات ثقيلة من الفضة حول كاحليها، وأساور من الفضة في يديها، وفي أذنيها أقراط كبيرة من الفضة، تحتوي على قطع من المرجان والعنبر، وتزين يدها بالخواتم ، وتحيط رقبتها بقلادة أو أكثر من الخرز والعنبر والمرجان والقطع المرجانية والنقود المعدنية وصناديق التمائم، وسلاسل طويلة من الفضة معلقة عليها يد كبيرة من الفضة للحماية من العين، ثم تضع فوق كل هذا الحايك الأبيض ليغطيها بالكامل من الرأس إلى القدمين.[38]

وبالنسبة لعامة النساء في مختلف الحفلات تظهر المرأة مثقلة بالحلي من الرأس الى أخمس القدمين، حيث تتطابق بمهارة مع أزياء المنطقة مع مراعاة التقاليد، خاصة وأن الحفلات والأعراس توفر فرصة مناسبة لتتباهى بما تملكه من مجوهرات أمام الأخريات، وهو ما يحدد مكانتها الاجتماعية ومستواها الاقتصادي، كما أنها تتيح لها فرصة لإعادة النظر في مجوهراتها.[39]

ولا يقتصر استخدام الحلي على النساء فقط، بل يمتد الى الفتيات الصغيرات أيضا، حيث يهتم الآباء في الأغواط بشراء الحلي لبناتهم الصغيرات، إذ منذ ستة أشهر يقدم الأب لابنته الأقراط والأساور وخلاخل صغيرة ويستمر هذا مع مراحل نموها. [40] وهذا ما ذكره "برنارد" " Bernard" في قوله:" الفتيات الصغيرات رشيقات لديهن عيون كبيرة، ترتدين ثوبا أحمر أو أصفر أو أزرق، تضعن أقراطا من الذهب أو النحاس، تضعن من خمسة الى ستة في كل جهة، في ثقوب محفورة على حافة الأذن الواحدة فوق الأخرى".[41]

ومن أجل حماية الأطفال من كل شر خاصة في صغرهم، فان أهلهم يضعون على رقابهم التمائم والخمسة، فتستخدم العائلات بعض الحلي لوقاية الطفل من الحسد والشرور، لهذا يعلق الناس حول رقاب أطفالهم قلادة فيها شكل يد مفتوحة، تعرف بالخمسة لأنها تعتبر في نظرهم حامية للطفل، من العين الشريرة وتجلب له الخير.[42]

و تعد نساء أولاد نايل بالأغواط من أكثر النساء المولعات بالزينة و المجوهرات، و قد قدم "برنارد" "Bernard" وصفا لهن كما يلي:" نساء أولاد نايل لهن حي خاص بهن في الأغواط ... يمسكن الملحفة بدبوس واسع من الذهب أو الفضة، المشبك يوضع كتاج فوق غطاء الرأس (المحرمة الحريرية) يتكون من سبعة الى ثمانية لوحات من الذهب، صفت جنبا الى جنب، كبيرة الحجم ومنحوتة، ومرصعة بالجواهر والمعلقات، سلال في الرقبة بها معلقات، قلائد من العملات الذهبية صفت على شريط أسود، و الأقراط في كل أذن من ثلاث الى أربع حلقات عريضة، و مزينة بالورود الكبيرة من المعادن التي لها قلب من المرجان الأحمر الداكن، من الرسغ الى الكوعين تضع أساور ثقيلة و ضخمة ذات نحت بارز، على الأذرع أسطوانات من الفضة، على الأصابع خواتم كثيرة، على الكاحلين خلاخل من الفضة أو الذهب تسقط على الخف، و التمائم و الهلال و النجمة مغروزة هنا و هناك في الشعر و الملابس".[43]

ثالثا: نظرة المستشرقين الفرنسيينللضيافة بمجتمع الأغواط:

يعتبر الكرم وحسن الضيافة من المظاهر الاجتماعية التي ميزت المجتمع الصحراوي الجزائري خلال القرن 19م، وهو ما لفت انتباه المستشرقين الأوربيين والفرنسيين، باعتباره مظهرا غريبا عنهم لم يألفوه في بلدانهم القائمة على الفردانية والأنانية، وتراوحت مشاعرهم خلال وصف هذه المظاهر الاجتماعية بين التعجب منها، الى الاعجاب بها وتقدير من يقومون بها، لما تحمله من معاني انسانية راقية. فقد بين "فيقاروا غاسكون" Figaro Gascon أن القادم من أوروبا أو من فرنسا الأنانية، بالكاد يستطيع تفسير المظهر المبهج، والوجه الطلق، والفم المبتسم للمضيف، الذي ينفق أفضل ما لديه على ضيوفه، اذ بمجرد دخول الغريب للدوار أو القرية يعطي المضيف أوامره لإعداد الضيفة[44].

ان الضيافة الجزائرية لا تقترن بالضرورة بتقديم الأطباق الكثيرة من الطعام ولا على فخامتها، بقدر ما يلتزم فيها الانسان الصحراوي الجزائري بآداب الضيافة التي دعا اليها الاسلام، فما كان له بالغ الأثر في نفوس هؤلاء هو سلوكيات المضيف، وملامح وجهه، واشعار الغريب أنه مرحب به، وهو ما يجعل الضيف يشعر بالراحة والاطمئنان، وتغني عن كل طعام باذخ. وهذا ما جعل "كلاماجر ان" J.J. Clamagrane يصف الكرم الجزائري بأنه عظيم وفخم، وتكمن عظمته في سلوكيات الجزائريين قائلا:" كرمهم يمتاز بنوع من العظمة والفخامة يؤثر في

الغريب، وهذا لا يعني أنه باذخ وفاخر وحتى لو كان بسيطا، فان العظمة تكمن في سلوكياتهم في حركاتهم وملامح وجوههم، المعبرة عن الوقار والود والاستئناس، عبارات أبلغ من أي بذخ، انهم يتمتعون بدرجة عالية بفن التعبير عن أحاسيس عميقة بطرق بسيطة جدا ".[45]

وحسب فرومنتان Fromentinتعتبر الضيافة مظهرا بارزا من مظاهر الحياة الاجتماعية في منطقة الأغواط، فهي تدل على عمق التقاليد ورسوخ الأصالة العربية لدى هذا المجتمع، ولا يرجع هذا الى واجبات اجتماعية، بل الى وصية ربانية باعتبار أن المسافر رسول الله [46].وانطلاقا من هذا تحتل الضيافة مكانة خاصة لدى السكان باعتبارها مبدأ ديني، فالإسلام ينص على اكرام الضيف واحترامه وبالتالي تعتبر الضيافة الزامية[47]بالنسبة للجميع، سواء كانوا أغنياء أو فقراء انهم مضيافون جدا وكرماء، الأمر الذي يجعلهم مستعدون لمشاركة وجباتهم مع الآخرين إذا كانت تكفي ولو كانت بسيطة، والا فيتخلون عنها بأكملها للضيف.[48]

ولا تقتصر الضيافة على من يعرفونه فقط، بل تشمل الغريب عنهم أيضا، فهم لا يترددون أبدا في دعوة المسافرين المارين بهم لتناول الطعام، ويقدمون المساعدة لمن يظلون طريقهم في الصحراء، ولا يتوانون عن اغاثة الملهوف.[49]

وقد تحدث "بليسي" Pélissierعن هذه الميزة قائلا: " يقوم العرب مجانا وبكرم بواجبات الضيافة، وقد ورثوا هذه الفضيلة عن الأجداد، أي الأجنبي يأتي المنزل كصديق يلقى الاستقبال الحسن دون النظر إلى العرق أو الدين، وقد شهد العديد من الضباط في كثير من الأحيان آثار كرم الضيافة، التي وجدوا فيها الكثير من الحرص والاهتمام والحنان، سواء كانوا بين العرب بصفة رسمية أو عندما يأتون كمسافرين".[50]

وكمثال على ذلك نذكر الحادثة التي ذكرها دي براي عن انقاذ "علي بن سالم" له و لرجاله، و قد عرف عن "علي بن سالم"، الذي تولى قيادة الأغواط بعد وفاة والده "أحمد بن سالم"، الكرم و حسن الضيافة، و قد برزت هذه الميزة فيما ذكره "دي براي"Du Barail بعد احتلال الأغواط حيث قال: "كانت على عاتقي حامية بأكثر من ألفي رجل بما فيها الجرحى الذين يقدر عددهم بمئتي جريح من بينهم ضابط جنرال و عشرة آخرين برتب مختلفة، و لم أكن أملك لإعالة كل هؤلاء غير بعض أكياس البسكويت و أخرى من الأرز...حتى سألني الابن الثاني لابن سالم: ما بك تبدو حزينا...؟". ولما أخبره دي براي أنه لا يملك مالا لإطعام رجاله، وفي الحال قدم له المال وعدد من الماشية في وقت قياسي. وهذا ما جعل دي براي يشعر بالغرابة من كرم الرجل والامتنان في الوقت ذاته في القول التالي:" لم أكن لأستطيع الخروج من تلك الورطة الحقيقية لولا الشيخ على، الذي أسدى الي هذه الخدمة وببساطة غريبة، وكأنه كان يقوم بشيء بسيط وعادي للغاية". وهكذا فان قيمة اكرام الغريب تعتبر

أمرا عاديا وطبيعيا اعتاد السكان على القيام به، وهو الأمر الذي يختلف عما كان يؤمن به هؤلاء الفرنسيين قبل مجيئهم الى الجزائر، حيث تم ايهامهم أن المجتمع الذي سيذهبون اليه خالي من القيم الانسانية، ولا يعرف شيئا عن الحضارة، وأنهم هم من سيعلمونهم الحضارة حسب زعمهم، بل بالعكس وجدوا قيما انسانية أبهرتهم. [51] إن هذه الحادثة تمثل شهادة واضحة تبرز ميزة الكرم التي ميزت سكان الأغواط حتى مع أعدائهم، وهذه الميزة تأخذ طابعا عقديا فالكرم وحسن الضيافة مقدسان، عند سكان الصحراء الجزائرية بما فيها سكان الأغواط.

كما وصف "ترومليTrumele " حسن الضيافة في منزل التجاني سنة 1864م قائلا:" الضيفة تجلب من قبل العديد من الخدام والأطباق تتراكم على الطاولة مع اسراف كبير، حيث كل المطابخ العربية تتميز بحضور التوابل، لم نرى الخمور كنا عند المرابط، فقط الحليب يقدم ويأتي الكسكس في إيناء خشبي والخروف مشوي، ويتميزون بحسن الاستقبال والضيافة والطعام المقدم ذو قيمة كبيرة.[52]

وتتكون هذه الضيفة مما يلي" التمور الطازجة والممتازة والكبيرة جدا، وحليب الإبل مقدم في أوعية صغيرة من الفضة، ثم قدموا حساء الدجاج مع الأرز، وطبق الراقو متبلا مع الكثير من الفلفل الحلو والفلفل الأحمر، ثم جاء الكسكسي وهو ضروري في كل وجبة من هذا النوع وهو جيد وممتاز، ثم قدمت سلسلة من الخرفان المشوية المطهوة في الدهون حيث العرب موهوبون حقا في هذا الطبخ، وبعدها قطع من الكعك والعجائن مع العسل، ثم القهوة اللذيذة ذات النكهة والرائحة الرائعة كل هذا مع خدمة راقية والمياه العذبة للشرب منكهة بعطر الورد والياسمين، كما قدمت قهوة لذيذة ذات نكهة ورائحة رائعة ثم أكملوا هذه الحفلة بتقديم التبغ التونسي".[53]

كما تلقى الرسام فرمنتان الضيفة في تاجموت خلال زيارته لها في شهر جوان من سنة 1853م وقد وصف "فرومنتانFromentin " الضيفة وطعامها وكيفية تقديمها وخدمة الضيف قائلا: "الضيفة هي طعام الضيافة، ومكوناتها سطرتها العادة والأعراف فأصبحت علامة من علامات اللباقة...وتتكون حسب التقاليد الرسمية للولائم من: أولا وقبل كل شيء كبش أو كبشين مشويين يؤتى بهما مرفوعين على خاروق طويل واللحم يتقاطر دهنا وشحما، وعلى الزربية طبق خشبي بطول الكبش... وصاحب الدار هو أول من يقطع أول شريحة و أحسنها ليقدمها لأكبر الضيوف مكانة و وجاهة...يقدم الكبش المشوي مع الرغيف المصنوع من الزبدة، ثم تأتي الأطباق الأخرى المطبوخة باللحم و الفواكه المجففة بصلصات متبلة بالفلفل الأحمر، ليأتي الكسكس في طبق خشبي كبير أما المشروبات فالماء و الحليب و اللبن".[54]

وتحدث "فرناند هيFernandHue " عن استضافة خيام الأرباع لهم تحت قيادة " الآغا لخضر" قائلا: " بعد لحظات جاء القائد قبل حلول الظلام وأحضر وجبة مما

أثار دهشة المسافرين ثبت طاولة ووضع عليها غطاء جميلا ثم أحضر الصينية وأدوات المائدة والأطباق، ووضع الخروف والدواجن والكسكس من دقيق القمح..."[55]

والملاحظ على كتابات هؤلاء المستشرقين تأثرهم الكبير بالسلوكيا ت المضيف، من اللطف والبشاشة وحسن الخدمة، التي انبهروا بها لدى مضيفهم في الصحراء الجزائرية بما فيها منطقة الأغواط، فإلى جانب الخدم الذين يسهرون على راحة الضيوف، يقوم المضيف بنفسه بخدمة ضيوفه، فيقدم القطع الجيدة لهم من اللحم ويحرص على تناولهم للطعام، حتى أن سيد الخيمة لا يأكل مع الضيوف، الا إذا ألحوا عليه لشدة حرصه على خدمتهم. ويشترك الجميع هي المعاملة الانسانية التي يلتزم بها المضيف تجاه ضيفه، والتزامه بآداب الضيافة التي يعبر عنها بحسن الضيافة، والتي لا تختلف عندهم جميعا، بغض النظر عن الوضعية المادية والمكانة الاجتماعية للمضيف

رابعا: نظرة المستشرقين لمكانة الأولياء بمجتمع الأغواط

اهتم المستشرقون الفرنسيون بالأولياء أو المرابطين، فبحثوا في أصولهم وكراماتهم ومكانتهم في المجتمع، واعتقاد الناس في قدراتهم، والطقوس التي يقيمونها تقربا منهم. ونورد بعض النماذج على سبيل المثال لا الحصر فحسب ادموند دوتيEdmond Doutté الذي أولى الموضوع أهمية خاصة أنالأولياء و الصالحين في الجزائرينحدرون من الأشراف وهم أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم من ابنته فاطمة، والأشراف الأكثر نبلا وشعبية في المغرب ينحدرون من الحسن السبط بن النفس الزكية ابن عبد الله الكامل [56].وقد انطلق الصلحاء من الساقية الحمراء من المغرب الأقصى خلال القرن 16م وبدأت هجرتهم، [57]وانتشروا في كامل شمال افريقيا بما فيها الصحراء الجزائرية، ونقلوا كل شيء الى القبائل التي وصلوا اليها، وارتبط اسم أغلب القبائل بصالح ما، و هكذا ظهرت قبائل الشرفاء التي تحمل اسم الولي الصالح الذي تنتمي اليه. وبعد القرن 16م أصبحت حقيقة اجتماعية واضحة الكل يسعى للانتماء الى المرابطين، وظهرت مجموعة من الناس نتيجة شهرتها والأغلبية من القبائل غيرت اسمها وارتبطت بمرابط مشهور، وهناك قبائل شريفة بالولادة وهناك قبائل شريفة بالانتماء [58]. ومن القبائل ذات الأصل الشريف في الأغواط نذكر عل سبيل المثال لا الحصر "أولاد سيدي عطاء الله"، "أولاد سيدي الحاج عيسى"، و"الحرازلية" وغيرهم[59]، والقبائل التي لم تستطع أن تتصل بشريف معروف اتخذت لها شريفا ما ذا أخلاق حميدة، وكثيرا ما ارتبطوا بمرابط لديه تشابه معهم في الاسم مثلا المخاليف الذين يرتبطون "بسيدي مخلوف" أحد أولياء القرن16م. وتحول المرابط في التاريخ المذكور سابقا من دوره العسكري الى دور المصلح والداعية وأصبحت مهمته سلمية وشيئا فشيئا أصبح وليا[60].

وهكذا انتقلت القبيلة من كيانات ذات جسد اجتماعي تحكمه القرابة، الى كيان قبلي ذا وازع ديني صوفي طرقي يتبنى وليا أو مرابطا ويتخذه جدا مؤسسا للقبيلة ودائما نجد أولاد سيدي فلان[61].كل هذا أدى الى طقسنة العلاقة بين القبيلة والولي الصالح، لأنه في المعتقدات الشعبية المحلية ان الولي حينما يموت تظل روحه تنتقل في كل مكان وأكثر ما تتجول على محيط الضريح، ولقضاء الحاجة فعلى الزائر طالب الحاجة الاستنجاد باسمه لتحقيق مراده، ونقلت الى الأجيال بتوارث الأفكار حول منزلة الأولياء وكراماتهم في حياتهم وبعد مماتهم وهذا الاعتقاد ساد في أوساط مجتمع الأغواط خلال الفترة الحديثة مثله مثل باقي المجتمع الجزائري[62].

وقد ذكر "أوغيست" Augustsالذي زار الأغواط خلال مهمة عسكرية بعد احتلالها سنة 1852م "أن كل سكان الصحراء لديهم قوة معنوية فريدة وهي المرابط، ولدى الناس اعتقاد كبير في المرابطين" [63]. اذن ان المكانة التي حظي بها الأولياء أو المرابطين ترجع إلى دورهم داخل المجتمع خاصة دورهم الخيري والسلمي، وفي فك النزاعات والمناوشات بين الناس أو المناطق وفي الصلح، وتقويم الخارجين عن الطريق المستقيم والمخطئين، وإغاثة المظلوم ومعاقبة الظالم ومن يخالفون أوامره، حيث يحدث لهم سوء أو خسارة والعقوبة تكون عامة خطيرة [64]، كأن يدعوا الله على قوم ظالمون فتختفي المياه التي يعتمدون عليها في حياتهم كما حدث للقصر الأحمر و الأبيض في منطقة جبل لعمور عندما رفض سكانهما استقبال الولي الصالح سيدي الحاج عيسى،[65] أو أن يهجر قصر من سكانه فجأة بسبب غضب الولي على سكانه بعد أن أساؤوا اليه.وللولي رموز مادية تتمثل في المقام والضريح أو الشجرة أو النبع أو الكهف [66]، أما الرموز المعنوية فهي كراماتهوتأثيره في المكان والزمان كأن يضرب بعصاه فينفجر نبع ماء [67]وغيرها، وبالتالي للولي دور هام في المجتمع إذا أخذنا بعين الاعتبار الأهمية التي يوليها الزوار للأولياء، فالعديد من الناس يعتقدون أن الولي هو الوحيد الذي يستطيع أن يضع حدا لمشاكلهم، حيث يقصده المريض أملا في الشفاء والعقيم أملا في الإنجاب والفتاة أملا في الزواج والمظلوم لاسترجاع حقوقه[68]. اضافة الى دورهم الاجتماعي وكراماتهم فانهم استمدوا الاحترام والمكانة العالية كونهم ينحدرون من النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق وأن ذكرنا.[69]وبالتالي فان نظرة الناس للأولياء جمعت بين الخوف والرهبة من غضبهم والاحترام والتقديس الراجع لكراماتهم وشرفهم. هذه العوامل جعلت أحفادهم وأتباعهم ومريدوهم يكرمونهم بعد موتهم بإقامة الأضرحة والقباب، واقامة مناسبات احتفالية تعرف محليا بالطعم للتقرب إليهم باعتبارهم أولياء الله وبغرض الحصول على البركة ولتجديد الولاء لهم[70].

فبالنسبة لطعم الولي الصالح سيدي عطاء الله مثلا يشد أبناء القبيلة رحالهم ويحملون الزاد والطعام والشاة لمجاورة ضريح الوليبأيام، كما تقصد المكان نفسه الركبان والقوافل من أتباع الشيخ سيدي عطاء الله من أحباؤه وأحفاد مريديه ، الوافدة على

ضريحه تبركا، هدفها تجديد الولاء والمحبة الخالصة على عهد آبائهم ،باعتبار أن الطعم طقس يقام على شرف الأولياء والصلحاء لأجل وظائف تبركية.[71] وعليه فطعم سيدي عطاء الله ما هو الا موعد لتجديد الولاء لصاحب المقام الولي الصالح، علما أن هذه المناسبة الاحتفالية تتخللها الوليمة التي يحضرها أبناء القبيلة ، حيث تجتمع العائلات في تجمعات قرابية تجمع خيامها في مكان واحد ، وتتخذ للضيوف قيطونا يصلح للغداء والاستراحة والأشعار والمدائح والأناشيد الليلية. ويقدم الطعام للجميع الفقراء وعابري السبيل والضيوف .[72] ويسمى الطعام المقدم في هذه المناسبة بالمعروف أو الطعم من أجل التقرب الى الله بواسطة هؤلاء الأولياء الذين يحبهم الله، ولا تنتهي المناسبة الا باحتفال الفنتازيا وألعاب البارود على مدى أيام الاحتفال، كما يعاد ترميم الضريح وصباغته بالجير الأبيض.

ويتم احياءها في الفترة الممتدة ما بين أواخر شهر أكتوبر وأوائل نوفمبر من كل عام ويعتبرها القائمون عليها فرصة للحفاظ على التماسك بين الأعراش وفك النزاعات وصلة الأرحام كما سبق وأن ذكرنا وتدوم قرابة الأسبوع في جو من التسامح والألفة[73].

وقد ساد في أوساط مجتمع الأغواط على غرار المجتمع الجزائري عموما خلال الفترة الحديثة اعتقاد بأن الأولياء الصالحين أحياء في قبورهم يتصرفون في هذا العالم ويقضون حاجات قاصديهم كما سبق وذكرناوهذاما بينه لويس رين حيث ذكر أن أتباع الولييخصونه بزيارات فردية وجماعية دون تقديم الذبائح والطعام، بل اقتصرت على تقديم هدايا وممارسة بعض الطقوس عندها، وليس لمثل هذه الزيارات وقتا أو أياما محددة ولهذا يقومون بزيارة أضرحة الأولياء وقبابهم والمقامات المختلفة في أي وقت وهذه الزيارة تخص المرابطين الأحياء أيضا[74].

وكمثال على هذه الزيارات ما ذكره "ترواملي" بأن الكثير من الناس يأتون لزيادة ضريح المرابط "سيدي مخلوف" وأخذ البركة اعتقادا منهم أنه يشفع لهم بقوة أمام الله نظرا لورعه، حيث قال:" يحضرون البخور ويشعلونه علامة على الولاء، ويعلقون المناديل والأشرطة على جدران الضريح حيث يطلبون تحقيق أمنياتهم وحل الكثير من مشاكلهم". [75] وأضاف في مكان آخر:"...والحصول على البركة خاصة النساء اللواتي يعانين من مشكلات كالعقم الذي يؤدي الى ضغوط تمارس عليهن من طرف الأزواج الأمر الذي يجعلهن تعيسات تشعرن بالمرارة ما يدفعهن للتوجه لزيارة الولي للدعاء والتوسل الى الله باسم الولي الصالح للتخلص من الضغوطات وحل مشكلاتهن" [76]. الظاهر أن الناس وخاصة النساء يلجؤون الى المرابط في الأزمات وعندما تشتد مشاكلهم، وذلك بالتقرب والتوسل الى الله بالولي باعتباره قريبا من الله. ومن الدوافع التي تجعل الناس يقصدون الضريح أو المقام، هي البحث عن الراحة النفسية نتيجة ضغوطات الحياة كالمشاكل الزوجية أو مشكلة العقم. أو الشفاء من مرض ما أو حماية أنفسهم منه كالحسد أو تحقيق رغباتهم.

والمرابط الآخر المعروف بشهرته هو "أحمد التجاني" مؤسس الطريقة التجانية بعين ماضي، اذ يقصد الناس ومن مختلف المناطق والقبائل قصر عين ماضي لزيارة ضريح المرابط، حيث تستقبل الزاوية التجانية القوافل المحملة بالهدايا باستمرار من أتباع الشيخ التجاني ومريديه من داخل منطقة الأغواط و خارجها [77].وقد شاهد فرومنتان خلال زيارته لقصر عين ماضي احدى الزيارات لضريح التجاني ووصف ما رآه قائلا: "خلا لالزيارة يدخل الزوار من النساء والرجال في موكب كبير الى المسجد ثم الى الضريح في هدوء كبير وبدون أحذية يبدو عليهم الايمان والتقوى والفرح في الوقت نفسه. ثم تقصد النسوة مع الفتيات الصغيرات المرابط بجدية وورع التماسا للبركة"[78]. وعادة في مجتمع الأغواط لا تخرج المرأة من البيت الا في بعض الحالات المحدودة منها زيارة الأضرحة [79]، ولعل هذه المناسبات تسمح لها بالترفيه عن نفسها من جهة من خلال التقائها بنساء أخريات كالصديقات مثلا وأداء طقوس الولاء للمرابط للحصول على البركة ونجاحها في حياتها وتحقيق أمنياتها من جهة أخرى.

خامسا: نظرة المستشرقين الفرنسيين للفنون بمجتمع الأغواط

اهتم المستشرقون بالفنون من شعر وموسيقى ورقص بمجتمع الأغواطالذي يعتبر مجتمعها شاعرا بالفطرة، استطاع شعراءه من خلال قصائدهم المتعددة المواضيع أن يعبروا عن الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية في هذا المجتمع حيث صور الشعراء حياة المجتمع بشكل ملفت للنظر، سواء في حالة استقرارالسكان أو ارتحالهم فهو الديوان الجامع لكل شؤون حياة الانسان البدوي الشعبي. وقد تحدث عن هذا "دوماس"Daumas قائلا :"اذا كان الشعر عندنا موهبة مقصورة على عدد قليل وميزة تخص بعض العقول زهرة نضرة لا تنبت الا بأرضية خصبة جدا، فإنها عند العرب متواجدة في كل مكان تغذيها الفضاءات الرحبة والشمس والخطر ومفاتن الطبيعة ومشاهد الحياة اليومية...وقول الشعر يتعاطاه الجميع من الراعي الى كبير القوم و سيد القبيلة، انه كنز يغترف منه الجميع من الراعي الذي يتبع قطيعه بإحدى السهول المحترقة ،الى رئيس الخيمة الكبيرة الذي يختال بين رجاله على سرج فرسه الفاخر"[80].

والغالب على مواضيع الشعر الصحراوي خلال القرن 19م هي تلك المرتبطة بحياته اليومية و بيئته وما يحيط من جمال الطبيعة ،و وصف النخيل و الفرس و السفر و عشق الحرية و التجوال الى اشعار الغزل ووصف الحبيبة الى القصائد الدينية و المدائح، وهذا ما ذكره "كنتمبرت" Conrtambert قائلا :"العربي يركب حصانه في المراعي الواسعة يطوف في الحقول وهو دائم التنقل لهذا يتمتع بصفاء الذهن و الروح و يلاحظ العالم الخارجي و يحصل على الاثارة التي تلون لغته و يعبر بشكل رائع عن الجبال و التلال و الوديان و الأنهار...عرب الصحراء يحتفظ بنوع من الشعر يعكس الشخصية الوطنية و تحظى المرأة والحصان و الحفلات و

السباقات بمكانة هامة من هذا الشعر، و يظهر أيضا في الحركة المبهرجة التي تختصر في كلمة واحدة و هي السعادة الكبرى(الفنتازيا).[81]

وهذه القصائد الشعرية يتم التغني بها من طرف القوال أوالمداح حيث عرف "دوماس" المداح بقوله:"المداح تقريبا هو شاعرنا الملحمي القديم يتبعه مرافقه القصاب ويذهب الى القصور، أو تحت خيمة رجل من الأعيان ليقيم جلسات مرحة في كل مكان يمكنه أن يتلقى أوسع ضيافة، مع وفرة من الدراهم والهدايا والمؤن الغذائية، حسب ثراء الشخص الذي يهديه الغناء، والعرب خاصة الذين يعيشون في الصحراء كانوا يحبون الشعر وكان الشعراء يحاطون باعتبار كبير"

هذا ويمارس المداح قريحته على أضرحة المرابطين في فترات الزيارات والوعدات التي يقوم بها خدامهم الى قبابهم، ويغنون مديح الولي بكيفية كاملة وغيرها من المواسم الاحتفالية، كما يقوم بعمله في أماكن التجمعات العامة كالمقاهي والأسواق وغيرها من الأماكن العامة.[82]

وأما عن الأدوات الموسيقية التي يستعين بها المداح لاستقطاب اهتمام الجمهور، فانها عبارة عن آلات محلية كالبندير والطبل والقصبة والدربوكة والطنبور.[83]

إضافة لاهتمامهم بالشعر فقد اهتم المستشرقون بالموسيقى أيضا واختلفت انطباعاتهم بين معجب بإيقاعها وتأثيرها على المستمع وبين مستهجن لها ومستغرب من ألحانها معتبرا إياها رتيبة ومملة ونورد بعض الأمثلة عن ذلك للتوضيح اذ بين "فرومنتان" Fromentinأن الموسيقى لم تكن تستعمل للترفيه فقط بل ارتبطت بحياة المجتمع الاغواطي في اطار عمله اليومي مثل التنقل من مكان الى اخر للقبائل البدوية كالأرباع، و بالتالي يصبح للموسيقى دور التحفيز و التشجيع على الاستمرار في السير حيث قال :"لم تكن الموسيقى بالنسبة للبدو الرحل مجرد و سيلة للرقص وانما وسيلة للحث على السير أثناء الرحيل ايضا....و في الطريق الى عين ماضي بدأ يتشكل خيط من الغبار فوق السهل الذي بيننا وبين تاجموت و تبين لنا أنها قبيلة مسافرة في اطار تغيير أماكن اقامتها و في اطار ذلك سمعنا موسيقى غريبة و قرع للطبول و عندما اقتربنا رحب بنا الشيخ ...و جاء الموسيقيين بعد اذن يمشون في صفين ...يضربون بحركة عسكرية على اطار صغير مربع مشدود الى جلد و البعض الاخر يضرب الطبل مع معقف من الخشب على دف صغير و آخرون ينفخون على المزمار"[84]

وهناك من وصف الموسيقى العربية بأنها رتيبة ومملة، وألاتها ذات لحن شنيع وهي تخلوا من اللحن بل انها عبارة عن ضجيج حيث يمزجون الصوت مع النغم ويرافق ذلك الرقص [85]، والواضح أن هذا الحكم سطحي يرجع الى طبيعة نظرة الأوربي الى العربي وحضارته بصفة عامة.

في حين هناك من يرى عكس ذلك "فبول سوليه" يقول:"عندما كنت أستمع الى الموسيقى العربية التي أحبها أقول انها المرة الأولى التي سمعت فيها ذلك، تحمل حياة وروح الشرق أين نجد الجمال الرائع في رتابة ايقاعها ونعومته، والذي يجعلك تحلم فهي تعزل المستمع الى مشاعر خاصة من خلال زيادة الحدة"[86].

وقد حضر "بول سوليه" حفل زفاف بمنطقة الغيشة قرب أفلو ووصف حركات الرقص في هذا الحفل بقوله :"الراقصتين اللتين دخلتا للساحة كانتا جميلتين وفي انتظام صفاتهما و شكلهما تقدمتا برشاقة بقدميهما الحافيتين ...تتبع ايقاع الموسيقى اللطيف و هي مثقلة بالحلى ترافق خشخشتها بلطف صوت الالة على مرأى من الحضور تتحرك ببطء و تبقى غير متأثرة، ثم تزداد الموسيقى تدريجيا و الراقصات يسقطن الحايك الذي يلفهن، و تحمل كل منهن منديلا حريريا في كل يد و تبدا بالرقص بسرعة أكثر من السابق، و يبدأ الحضور برمي المال عليهن و يصحب هذا زغاريد النساء الجالسات في الرواق و الأموال التي تقدم للراقصات ليست لهن بل للموسيقيين، و هذا النوع من الرقصات كثير جدا في جبل لعمور يعملن مقبل الحصول على المال ثم يعدن الى الحياة الاجتماعية العادية عندما تقررن ذلك".[87]

أما فرومنتان فانه يرى أن الرقصة العربية في الجنوب تعبر برشاقة حقيقية أكثر وبعفاف أكبر وفي لغة إيمانه أدبية للغاية عن حكاية عاطفية مليئة بالتقلبات المفاجئة الرقيقة، وقد وصف رقص النساء العربيات في المجتمع الصحراوي الجزائري بنفس الوصف السابق الذكر تقريبا.[88]

وهكذا نجد أن المستشرقين الفرنسيين من خلال دراستهم للتراث الشعبي في هذا المجتمع ساهموا في تقديم معلومات هامة عن هذا الجانب بحيث يعتبر التراث الشعبي مرآة عاكسة للمجتمعات وبالتالي عكفوا على دراسته لفهم عقلية المجتمع باعتباره يعبر عن آماله وآلامه.

الخاتمة: من خلال دراستنا لهذا الموضوع توصلنا الى الاستنتاجات التالية:

-لقد بذل المستشرقون جهودا كبيرة في دراسة المجتمع الجزائري بما فيه مجتمع الأغواط والتعرف على مختلف مكوناته ومنذ الولهة الأولى للاحتلال خدمة لأغراض استعمارية تتمثل في البحث عن سبل احكام قبضتهم على هذا المجتمع.

-اهتم المستشرقون الفرنسيون بالتغلغل في أوساط المجتمع ومحاولة فهمه عن كثب فلم يتركوا جانب من جوانب الحياة الاجتماعية الا كتبوا عنه وبكثير من التفصيل محاولين تقديم صورة واضحة عن هذا المجتمع للسلطات الاستعمارية ولكنهم في نفس الوقت تركوا مدونات تحمل الكثير من المعلومات التي واقع مجتمع الأغواط خلال القرن 19م والتي تعد مصادر تاريخية لا غنى للباحث عنها بعد التمحيص والتحقيق.

-اهتم المستشرقون بالمرأة في المجتمع من خلال محاولتهم لفهم مكانتها ووضعيتها ودورها داخل المجتمع فمنهم من قدم لها صورة قاتمة بعيدة عن واقع هذا المجتمع وبالتالي اتسمت دراستهم بالانحياز ومنهم من تميزت دراستهم بنوع من الحياد فحاولوا انصافها.

-كما درسوا لباس المرأة وحليها فتحدثوا في كتاباتهم عن أنواع الأقمشة وذكروا أنواع الملابس وكيفية ارتداءها وألوانها وتأثيرها على شكل المرأة كما قدموا وصفا مفصلا لقطع المجوهرات التي تتزين بها النساء من حيث شكلها ونقشها ومعدنها ووظيفتها وكيفية وضعها.

-حاز ظاهرة الطقوس حول الأولياء والصالحين على اهتمام المستشرقين فخصصوا لها حيزا هاما في دراساتهم نظرا لانتشارها في أوساط المجتمع ولهذا جند هؤلاء أقلامهم للبحث في مكانة الأولياء وعلاقة المجتمع بهم من خلال الاحتفالات والزيارات التي يقيمها أبناء القبائل حول أضرحة المرابطين.

-من بين ما لفت انتباه المستشرقين في مجتمع الأغواط نجد الضيافة تلقى هؤلاء الضيافة في المنطقة، وأكرمهم سكانها بسخائهم وحسن معاملتهم، وهو ما مكنهم من اكتشاف القيم الانسانية العالية، التي يتمتع بها هذا المجتمع حتى مع أعدائه، فعاين هؤلاء عن كثب آداب الضيافة وحسن الاستقبال، التي أثرت في نفوسهم، ودونوا ملاحظاتهم عن أطباق الضيافة، وطرق تقديمها، والسلوكيات المصاحبة لذلك.كما لم يخفوا تعجبهم أو استغرابهم من بعض السلوكيات، واستهجان بعضها الآخر باعتبارها غريبة عنهم أو انطلاقا من نظرتهم الاستعلائية للمجتمع الشرقي عموما.

-كذلك دون المستشرقون ملاحظاتهم حول جوانب من التراث الشعبي كالشعر والموسيقى والرقص كونها تعكس جوانب من عواطف المجتمع وتكشف عن طموحاته لفهم عقليته خدمة لأغراض الاستعمار.

---

[1]-Benjamin Gastineau, **Les Femmes et les Mœurs de l'Algérie**, Librairie de Michelléuy Fréred, Paris, 1861,p5.

[2]-E.Danmas," **la Femme Arabe**", Revue Africaine,N2, Année 1857, Librairie Editeur, Alger,1857,P152.

[3]-E.Daumas**," la Femme arabe"**, Revue Africaine, Année56,N 284,1er Trimestre 1912,Adolphe Jourdan,Libraire-Editeur,Alger,1912,,p5.

[4] -E.Fromentin, **Sahara et sahel**, Libraire Plon,E. Plon .Nourrit et Cie ,Imprimeurséditeurs , Paris,1886,p103.

[5]- Le Docteur Bernard, **L'Algérie qui S'en Va**, Librairie Plon.E.Plon,Nourritet Cie Imprimeurs Editeurs,1887,p103.

[6]- Gortambert.E, **Géographie Universelle**,de Malte-brun,T5, Boulacer et grandLibraires- Editeur,(s.d),p47.

[7]- بشير بديار، ديوان سيدي الحاج عيسى الأغواطي 1678-1737، مطبعة بن سالم، الأغواط،2009، ص22.

[8]- مصطفى بوتفنوشت، المرجع السابق، ص 81.

[9] -M.M.E. Jean Pommerol, **une Femme chez les Sahariennes** ,E rnest Flammarion E diteur,Paris,1898.,p220.

[10]-يوهان كارل بيرنت، **الأمير عبد القادر** ،تر و تق: أبو العيد دودو،دار هومة،الجزائر،2012،ص116.

[11]-P.Clavenad, **une Mission dans le sud Oranais**,Librairie Ancienne et Moderne de S.Pitrat,Parie,1888,p79.

[12]- ترومللي ، **الفرنسيون في الصحراء:** يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية، تر: محمد المعراجي، غرناطة للنشر و التوزيع، الجزائر،2013، ص566.

[13]-Auguste choisy,**le Sahara Souvenirs d'un Mission a Goleah**,E. Plon ,Cie Imprimeurs-éditeurs ,Paris,1881, p69-68.

[14],Le Lieutenant-Colonel Villot **Moeur,Coutumes et Institutions desIndigénesdeL'Algérie**, Librairie Adolpfe Jourdan, Alger,1888-,p132 .

[15]-ibid,p15.

[16]- ترومللي، المصدر السابق، ص ص 340 ، 566.

[17]- نفسه، ص340

[18]-M.M.E. Jean Pommerol, op.cit,p113-111.

[19]-E.Fromentin، **Un Eté dans le Sahara**, Librairie Plan Plon-Nourrit et Cie-Imprimeurs éditeurs , Paris,1904 , p174.

[20]-هاينريش فون مالستان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**،ج3،تر:أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع،الجزائر،1980، ص231.

[21]-Le Lieutenant-Colonel Villot , **Moeur,Coutumes et Institutions desIndigénesdeL'Algérie**, Librairie Adolpfe Jourdan, Alger,1888,p41.

[22]-M.TH.Pein،**Lettres Familieres sur l'Algérie** : un petite Royaume Arabe, T.Martin.Imprimeur-Libraire,Editeur,Paris,1871,p47

[23]-M.M.E. Jean Pommerol,op.cit,p25.

[24]- Jean Pommerol, **les Ksours du Sahara**, le Monde Illustré, 43 année, N2184, 5 Février 1899, 85 , op.cit, 85

[25]-Auguste choisy,**le Sahara Souvenirs d'un Mission a Goleah**,E. Plon ,Cie Imprimeurs-éditeurs ,Paris,1881, p69-68.

[26]-هاينريش فون مالستان،المصدر السابق،ص230.

[27]- Hubertine Auctert, **les Femme Arabe en Algérie**, Societe d'édition Litteraires ,Paris,1900, p197-194.

[28]- Le Docteur Bernard،**L'Algérie qui S'en Va**, Librairie Plon.E.Plon,Nourritet Cie Imprimeurs Editeurs,1887,p189.

[29]- E.Fromentin, **Sahara et sahel**, Libraire Plon,E. Plon .Nourrit et Cie ,Imprimeurséditeurs , Paris,1886,p98.

[30]-ibid,p97.

[31] -ibid,p245.

[32]-Emil Dermenchem, **Le Pays d'Abel** : Le Sahara des Ouled-Nail, des Larbaa et des Amour,Achevé D'imprimerie par L'Imprimerie Floche Mayyane, France, 1960, p180.

[33]-Aissaoui Mohamed, **Parure des Oasis Sahariennes**, , Parure et Bijoux d'Algérie à travers l'histoire ,Ministére de la Culture,Alger,2011 ,p181.

[34]-M.TH.Pein,op.cit,p25.etPaul Eudel,**L'Orfévrerie Algérienne et Tunisienne**,Typographie et Lithographie Adolphe Jourdan,Alger,1902,pp49-50,56.
[35] - Jean Pommerol, **une femme...**,op.cit,p219-220.
[36] - E.Daumas**, op.cit**,p39.
[37] - Jean Pommerol, **une femme...**,op.cit,p236
[38] - A.Villacrose,op.cit,p27.
[39] -Marie Bugéja**,Vers la Renaissance des Arts Algériens**, **Vision d'Algérie**, Baconnier Fréres Editeures, Alger,1929,224.
[40] - M.M.E. Jean Pommerol, **une femme** ,op.cit, p223.
[41] - Le Docteur Bernard,op.cit,p189
[42] -Le Lieutenant-Colonel Villot,op.cit,pp27-32.
[43] - Le Docteur Bernard,op.cit,p208-209.
[44]- Figaro Gascon,"Letter Algérienne"**,La Lorganette** :journal des théatres,8[e] année, 12 juin 1886,p5.
[45]- J.J. Clamagrane,**L'Algérie : Impressions de Voyage 17 mars-7juin1873**, Librairie GermerBailliére,Paris,1874,p175.
[46]- E. Fromentin, **Un Etédans le Sahara**,Libraire Plan Plon-Nourrit etCieImprimeurs-éditeurs,Paris,1904,p80.
[47]- Le Docteur X,**Souvenirs d'Afrique1854-1855**,Imprimerie de lefebure-Ducrocq,(s.d),p99.
[48]- E.Daumas,**les chevaux du Sahara et les mœurs du Désert**,Librairie Nouvelle,Paris, 1874,p419.
[49]- Louis de Baudicour, "Nouvelles Diverses des Arabes", **Gazette du BasLongudoc**,9juillet1852,20[e]année,N670,p5.
[50]- أ.بليسيي، **حوليلت جزائرية**، المجلد2، أصالة، الجزائر،2010،ص300.
[51]- Du Barail,**Mes Souvenires 1851-1854**,T2,Librairie plon.E.Plin et CeiImprimeurs, Editeurs, Paris, p60.
[52]- C.Trumelet, **Histoire de L'Insurrection dans le Sud de laProvince DAlger en1864**,TypographieAdolphe Jourdan Imprimeur –libraire,Alger,1879,p147.
[53]- J.G.Cler, op.cit, p51-52.
[54]- E.Fromentin, **un été**…op.cit, p18-19.
[55]-Hue Fernand,op.cit,p71.
[56]-Edmond Doutté, **Notes sur L'islam Maghribien Marabout**, le Roux Editeur, Paris,1900, p47.
[57]-للمزيد حول هذا الموضوع أنظر: عبد الرحمان ابن خلدون،ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، مرجعة: سهيل زكار، ج 6، درار الفكر لبنان،2000،ص 177-178.
[58]- Ibid,p47.
[59]-دوك دي دوماس، **الصحراء الجزائرية**، تر: قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2013،ص54.
[60]-ادموند دوتي، **الصلحاء مدونات عن الاسلام المغاربي خلال القرن 19م**، تر: محمد ناجي بن عمر، مطابع افريقيا شرق، المغرب،2014،ص ص71،63.
[61]-الهادي بوشمة، **طقس الوعدة بالجزائر بين الهوية و المقدس**: مقاربة أنثروبولوجية بمنطقة أولاد نهار بتلمسان الجزائر، الندوة الدولية الخامسة حول العلوم الاجتماعية، ASEAD، التي عقدت في Managhat-Antalya في 27أفريل- 29 أفريل 2019، ص346.
[62]- بن أحمد أحمد، **الوعدة في الغرب الجزائري أصولها و تطوها** ، رسالة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، جامعة تلمسان، 2006-2007، ص113.

[63]-Auguste choisy,**le Sahara Souvenirs d'un Mission a Goleah**,E. Plon ,Cie Imprimeurs-éditeurs ,Paris,1881, p7.

[64]-Trumelet **, L'Algérie Légendaire**, Librairie Adolphe Jourdan, Alger,1892,p115 117,178.

[65]- Jeans Despois, **le Djebel Amour**, Presses Universitaires de France, Paris,1957,p34

[66]-ترومللي ، **الفرنسيون في الصحراء: يوميات حملة في حدود الصحراء الجزائرية** ، تر: محمد المعراجي، غرناطة للنشر و التوزيع، الجزائر،2013، ص 118.

[67]- A.Certeux et E.Henry, **L'Algérie Traditionnelle**, T1,Cheniaux. Franville, Alger, (s.d),p107-109.

[68]- C.Trumelet, **Histoire de…,**op.cit, p55.

[69]- Jeans Despois, op.cit,p29-30.

[70]- Louis Rinn,**Marabouts et Khouans**,Adolphe Jourdan Libraire Edition, Alger,1884 p 16.

[71]- Dermengheim Emile**, le Culte des Saints dans l'Islam Maghrébin**, Galimard, Paris, 1954,152-153

[72]-عبد العزيز رأس مال، **الركب و الوعدة و المعروف** ، Cahiers de Cread ،N79-،80 2007،ص 16.

[73]-محمود الأخضاري، المرجع السابق، ص ص212-214.

[74]- Louis Rinn,op.cit,pp15-16.

[75]- Trumelet, **Histoire**…op.cit, p55.

[76]- Ibid,p76.

[77]- Auguste choisy,op.cit,p11.

[78]- E.Fromentin**, Sahara et sahel**,op.cit,p179-180.

[79]-بشير بديار، **ابن كريو حياته حبه و شعره**، مطبعة بن سالم، الأغواط،2009،ص36.

[80]- Daumas**,E.Daumas, Mœurs et Coutumes de l'Algérie : tell, Kabylie, Sahara,** Librairie de L. Hachette et Cie,Paris,1853, p 106.

[81]- E .Gonrtambert, op.cit, p50-51.

[82]- دوك دي دوماس، **الصحراء الجزائرية**، تر: قندوز عباد فوزية، غرناطة للنشر و التوزيع، الجزائر،2013،ص294.

[83]- Hue Fernand, **les Cavaliers de Lakhdar** :Roman Algérien, le cène Oudin et CieEditeur, Paris, (s.d) , p52.

[84]- E. Fromentin, **Sahara** …, op.cit,p154-157

[85]- A.Certeux et E.Henry, **L'Algérie Traditionnelle**, T1,Cheniaux. Franville, Alger,(s.d), p 240.

[86]-Jule cros,**Paul Soleillet en Afrique**, Maurice Drey Dous, Editeur 13 Faubourg mont matre13,Paris, (s.d) , p27.

[87]-ibid, p27-28.

[88]- E.Fromentin, **Un Eté** …, op.cit,p31.